القضايا اللغوية والبلاغية

في تفسير هود بن محكم الهواري

أ.نبيل ربيع

جامعة الحاج لخضر باتنة-01-

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد فهناك شخصيات مغمورة، ودراسات مفقودة في تراثنا الإسلامي عامة، وفي تاريخ الجزائر خاصة، ومن تلك الشخصيات والدراسات، شخصية الإمام هود بن محكم الهواري، الذي أتى عليه حين من الدهر، ظل فيه كنزا دفينا وركازا مخبوءا، بعيد عن الأضواء، مختفيا في دوائر الظلال، لا يكاد يرسوا على شاطئه باحث، أو يأنس لأجوائه دارس، أو يرنوا إليه قلم.

وذلك بالرغم من البريق اللامع الذي تألقت به شخصيته، بوصفه علما من أعلام المدرسة الإباضية إبان القرن الثالث الهجري، ولا يزال الأمر كذلك حتى التف إليه بعض الباحثين أمثال المحقق بالحاج بن سعيد شريفي، ففتحت الطريق إلى دراسة تلك الشخصية الفذة في تاريخ الفكر الإسلامي وفي تاريخ الجزائر.

من خلال هذا المنطلق أحببنا أن نسلط الضوء على شخصية هود بن محكم وسيرته، وأهم القضايا اللغوية والبلاغية التي وظفها في تفسيره وأهم ملامحها.

فمن يكون هود بن محكم؟ وما هي ترجمة حياته؟ وما هي أهم القضايا اللغوية والبلاغية التي ناقشها؟ وفيما تمثلت؟ وما هي أهم ملامحها؟

للإجابة على الاشكالية السابقة جرى ترتيب هذه الدراسة بكيفية شاملة ووافية وبتدرج وتسلسل منطقي، وذلك من خلال التطرق إلى تقديم ترجمة المفسر، الاتجاه اللغوي عند هود بن محكم، وأهم ملامحه، الاستشهاد بالشعر عند هود، الاتجاه النحوي عند هود، القضايا اللغوية والإعرابية عند هود، وأخيرا الاتجاه البلاغي عنده.

لهذا جميل بنا أن نعرض ترجمة المفسر هود بن محكم، فمن يكون؟

لمحات عن حياة هود بن محكم الهواري[1]:

هود بن محكم الهواري: هو الشيخ العلامة المفسر الجزائري، وهود نسبة إلى قبيلة " هوارة" وهي من قبائل البرنس البربرية.

لا يعرف له تاريخ الميلاد ولا الوفاة، وإنما ربما يكون قد ولد في العقد الأول أو الثاني من القرن الثالث الهجري (210-220) وهو ما ذهب إليه الأستاذ المحقق بالحاج بن السعيد شريفي.

كان والده قاضيا وعالما جليلا فحلا، عينه الإمام أفلح بن عبد الوهاب قاضيا على تيهرت.

نشأ هود وتربى في أسرة تقية ورعة، فالاحتمال قوي بأن هود قد رضع من معين والده رضعات العلم منذ صغره.

وبهذا يكون مفسرنا قد أخذ جل علومه في موطنه، وهو إباضي المذهب، أشعري العقيدة، سار على منهج الأشاعرة في تأويل الأسماء والصفات، كما يعد من العلماء البارزين في التفسير، وعلما من أعلام الجزائر في القرن الثالث الهجري.

وقد حباه الله من القدرات الفائقة في استيعاب ما وصل إليه عصره وما وصلت إلى عصره من العلوم.

وقد شد هود الرحال طلبا لتحصيل العلم والمعرفة، وكانت رحلته إلى تونس وإلى جامعها العامر (الزيتونة) وفيها حيث كان جالسا في حلقات العلم ونهل منها المعارف المختلفة.

وعاد هود إلى قريته وموطنه متشبعا بالعلم والمعرفة، ليصبح بعد ذلك قطبا ومقصدا لطلاب من جميع الفئات داخل الجزائر وخارجها.

اشتهر بالعبادة والتأليف إلا أن المصادر وخزائن الإباضية لم تحفظ لنا سوى مؤلفا واحد وهو تفسيره لكتاب الله العزيز.

هذه إذا سيرة موجزة عن حياة هود، الذي ضل حقبة من الزمن مدفونا في التراب، بعيد عن الأجواء، مدسوسا في غياهب الزمن، قرابة أحد عشر قرنا، حتى كتب الله له الظهور على يد المحقق الأستاذ بالحاج بن سعيد شريفي، هذا وإن دل فإنما يدل على مكانة التفسير في قلوب الجزائريين، كيف لا وهو أول مفسر جزائري إباضي حفظه لنا التاريخ فوجب علينا الاعتزاز والافتخار به.

الإتجـــــاه اللغوي في تفسير هـــود بن محكـــم:

لقد إهتم هود بالبيان اللغوي للألفاظ القران الكريم، وخاض في بعض المباحث اللغوية بمنهج وضعه في مقدمة تفسيره وإلتزم به وهذه بعض ملامحه:

- إعتنائه بمفردات وألفاظ القران الكريم وشرحها، مستشهدا بذلك بنظائر القرآنية والأحاديث التي وظفت فيها الكلمة.مع الأستشهاد كذلك بالشعر وأقوال بعض المفسرين ومن أمثلة ذلك مايلي :

أ.النظائر القرآنية :

(فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم)

قوله تعالى: ﴿..جَنَفًا أَوۡ إِثۡمًا ..﴾ البقرة: ١٨٢ يقول هود الجنف أن يوصي بجور وهم لا يتعمد الجور، كقوله تعالى:﴿..غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ ..٣﴾ المائدة: ٣ غير متعمد الإثم أن يوصى بجور وهو يعلم انه جور[2]

ب.النظائر الحديثية :

مثل قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧﴾ المعارج: ٣٦ – ٣٧ يقول هود: [ذكروا عن جابر بن سمرة قال :خرج علينا رسول الله ﷺ فرانا حلقا، فقال (مالي أراكم عزين)[3]،جمعها العزون :هي الجماعات المتميزة بعضها عن بعض][4]

ت.من الشعر:

مثل قوله تعالى ﴿عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣﴾ القلم: ١٣

يقول هود :[قال الشاعر:

زنيم تداعاه الرجال زيادة ***كما زاد في عرض الأديم الأكارع[5].

و الزنيم في كتب اللغة هو :الداعي في النسب، وقيل الزنيم الذي يعرف بالشر واللؤم][6].

ث ـمن أقوال المفسرين:

مثل قوله تعالى: ﴿..لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً..﴾ التوبة: ٨ قول هود: [قال بعضهم :إلا ولا ذمة :عهد، ولا ذمة.و قال الكلبي: الإل:الحلق، والذمة :العهد][7]

الاستشهاد بالشعر في تفسير هود:

لقد إعتنى هود بإيراد أبيات محدودة في مواضع قليلة لأغراض عدة منها :بيان لفظ قريب، أو توكيد وجه للمعنى المراد او من باب الاستئناس أو للتوسع، وهذه امثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ الحشر: ٥ يقول هود: [أي :إن الله أذن لكم في ذلك فجعل ذلك إليكم: أن تقطعوا إن شئتم وان تتركوا إن شئتم].

ثم يقول :[ذكروا عن نافع بن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وترك العجوة، وهي التي يقول فيها الشاعر :

و هان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير][8].

الاتجاه النحوي في تفسير هود:

لقد برز الجانب النحوي جليا في تفسير هود، وإن كان قليل من الناحية الكم، إلا أنه إهتم بالدرس النحوي في بيان تفسير لآيات القرآنية والتي من أمثلتها :

- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا..﴾ الأنعام: ١٥٣ يقول هود :[أي الإسلام، طريقا مستقيما إلى الجنة، وإنما إنتصب لأنه من باب المعرفة، كقولك :هذا عبد الله مقبلا][9].

القضايا النحوية الإعرابية في تفسير هود بن محكم الهواري :

حيث نجد هود يذكر وجه الإعراب في بعض الآيات القرآنية من باب الإيضاح والبيان، ومن أمثلة ذلك :

- قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢﴾ الرحمن: ١٢، يقول هود:[قوله عز وجل ﴿.. وَٱلرَّيۡحَانُ..﴾ تفسير الحسن أنه مبتدأ، يقول :و فيها الريحان والرياحين.و تفسير الكلبي الريحان الرزق :و هذا التفسير على من قرأها بالجر: والحب ذو العصف والريحان، يجعلها من صفة الزرع][10].

أما مسألة الاضمار فنجد مثاله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ..﴾ الأعراف: ٥٤ يقول هود: [وفيها اضمار، وإضمارها: الذي خلق السماوات والارض وما بينهما، وهذا موضع الإضمار][11]

أما مسالة الاستفهام، فنجد هود يبين مواضعه وأنواعه.كقوله: [و هذا الاستفهام إنكاري، وهذا الاستفهام على التقدير][12] ثم يسرد تفسيره.

اما مسألة الصرف فنجد مثاله في قوله تعالى: ﴿..أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ الأعراف: ٥٤ يقول هود: [من البركة وهو تفاعل][13].

فاهتمام هود بن محكم الهواري للدرس الصرفي هو لخدمة النص القرآني، لهذا نجده يميل وينحاز إلى الاختصار.

الاتجاه البلاغي في تفسير هود:

لقد تكلم هود عن بعض المسائل والقضايا البلاغية في تفسيره، ومن أمثلة ذلك مايلي :

- **مسألة الموصول والمقطوع:**

ومثال قوله تعالى: ﴿...وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ...﴾ البقرة: ١٠٢

- يقول هود: [وهذا الكلام موصول بما قبله ثم يقول:و اتبعوا ما تتلوا الشياطين على الملكين ببابل... يعني: الفرقة بين المرء وزوجه][14].

أما عن المقطوع ففي قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ هود: ٧٢ – ٧٣ يقول هود :[هذا كلام مستقبل، مقطوع من كلام الملائكة.][15].

- مسألة التقديم والتأخير :

و مثال قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ.. ﴾ آل عمران: ٥٥ يقول هود:[وفيها تقديم، أي رافعك ومتوفيك بعدما تنزل.][16]

- الأساليب القرآنية :

اهتم هود ابن محكم بالأسلوب القرآني، خاصة في الربع الاخير من القرآن الكريم، إذ يغلب عليه القرآن المكي، والذي يعرف بكثرة أسلوب الترغيب والترهيب، أو الوعد والوعيد. كما نجد هود يعقب على النص القرآني بقوله :[و هذا وعيد] وكذلك بقوله :[و هذا تخويف] مثل قوله تعالى: ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧ ﴾ الملك: ١٧. يقول هود: [و هذا تخويف][17].

أما عن الآيات الاولى من سورة الشمس يقول: وهذا كله قسم[18].

فهذه بعض المباحث والقضايا اللغوية والبلاغية التي أثارها هود بن محكم في تفسيره لكتاب الله العزيز والتي نراها مختصرة، كما نجده غير مطنب ولا مسهب فيها، ويتجلى ذلك من استشهاده في شتى الجوانب اللغوية والبلاغية.

وختاما أرجوا أن أكون قد وفقت في عملي هذا، أو أضفت لبنة في الدراسات القرآنية، لأن الكمال لله سبحانه وتعالى وما توفيقي إلا به.

الهوامش:

[1] لخصت المعلومات حول حياة هود بن محكم من خلال مقدمة تفسيره، 10/1،تحقيق :بالحاج بن سعيد شريفي دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان ط:1، 1990

[2]هود بن محكم الهواري ،تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق :بالحاج بن سعيد شريفي دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان ط:1، 1990

[3] هود التفسير، 414/4 والحديث رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي في كتاب الصلاة، باب الامر بالسكون في الصلاة، رقم 1،322/430

[4] ينظر :ابن منظور، لسان العرب، 771/2، مادة غزا

[5] هود، التفسير، 116/2، 115

[6] سورة الحشر /5

[7] هود التفسير،365/2

[8] هود، التفسير،320/4

[9] هود، التفسير، 365/2

[10] سورة الرحمن ،/12

[11]هود، التفسير، 262/4

[12] هود التفسير، 24/2

[13] هود، التفسير ،131/1

[14] هود، التفسير، 236/2

[15] هود،التفسير،236/2،

[16] هود،التفسير،286/1،

[17] هود، التفسير، 390/4

[18] نفس المصدر،509/4 ،والآيات من 1-10